الذّكاء الاصطناعيّ في المجتمع
نحو سوسيولوجيا للعصر الرّقميّ

Artificial Intelligence in Society
Towards a Sociology of the Digital Age

أ. جمال الدين رقيق برة

د. سعيدة صغير بيرم

جامعة محمد خيضر بسكرة
الجزائر

saida.seghirbirem@univ-biskra.dz

الذّكاء الاصطناعيّ في المجتمع
نحو سوسيولوجيا للعصر الرّقميّ

أ. جمال الدّين رقيق برة، د. سعيدة صغير بيرم

ملخّص:

تسعى هذه الدّراسة إلى تقديم مقاربة سوسيولوجيّة تحليليّة للذّكاء الاصطناعيّ بوصفه ظاهرة اجتماعيّة وتقنيّة مركّبة، تتجاوز البُعد التّقنيّ لتشمل البُنى الاجتماعيّة والثقافيّة والأخلاقيّة للمجتمعات المعاصرة. وتنطلق الدّراسة من التّساؤل المركزيّ التّالي: كيف يمكن لعلم الاجتماع أن يُسهم في فهم التّحوّلات الّتي يُحدثها الذّكاء الاصطناعيّ في البنية الاجتماعيّة، وما الأدوات النّظريّة والمنهجيّة الّتي يوفّرها التّراث السّوسيولوجيّ لتحليل هذه الظّاهرة؟ واعتمدت الدّراسة على المنهج التحليليّ الوصفيّ مع الاستناد إلى مقاربة سوسيولوجيّة تستحضر إسهامات الرّوّاد المؤسّسين لعلم الاجتماع، من ابن خلدون وأوغست كونت إلى إيميل دوركايم وماكس فيبر، في ضوء المستجدّات التّقنيّة المعاصرة. وخلصت الدّراسة إلى أنّ الذّكاء الاصطناعيّ يمثّل لحظة فارقة في تاريخ العلاقة بين الإنسان والآلة، وأنّ المقاربة السّوسيولوجيّة تظلّ ضرورة لا غنى عنها لفهم تداعياته على تقسيم العمل الاجتماعيّ، ومنظومة القيَم، وأشكال التّضامن والرّقابة الاجتماعيّة، وأنّ غياب البُعد الاجتماعيّ في النّقاشات المتعلّقة بالذكاء الاصطناعيّ قد يُفضي إلى تبعات خطيرة على المستويْن الفرديّ والجماعيّ.

الكلمات المفاتيح: الذّكاء الاصطناعيّ، علم الاجتماع، التّحوّلات الاجتماعيّة، الفعل الاجتماعيّ، الأخلاقيّات الاجتماعيّة، المجتمعات المعاصرة.

الذكاء الاصطناعي في المجتمع ـــــــ

1- مقدّمة:

لعلّ من أبرز ما يميّز اللّحظة الرّاهنة في تاريخ البشريّة هو ذلك التّسارع غير المسبوق في التّطوّرات التّكنولوجيّة، والّذي بات يعيد تشكيل أنماط الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثّقافيّة بصورة لم تشهدها المجتمعات الإنسانيّة من قبل. وفي خضمّ هذا التّحوّل، برز الذّكاء الاصطناعيّ باعتباره أحد أكثر المنجزات التّقنيّة إثارة للجدل وأعمقها أثرًا في البُنى الاجتماعيّة؛ إذ لم يعد مجرّد أداة تقنيّة توظّف لتسهيل المهامّ اليوميّة، بل أصبح فاعلاً حقيقيّاً يتغلغل في مفاصل الحياة الاجتماعيّة ويعيد رسم ملامح العلاقات بين الأفراد والمؤسّسات والدُّوَل.

يعرّف الذّكاء الاصطناعيّ بأنّه ذلك المجال العلميّ الّذي يهتمّ بتصميم وتطوير آلات قادرة على أداء سلوكيّات يُنظر إليها على أنّها ذكيّة من منظور الإنسان، وذلك من خلال محاكاة عمليّات التّفكير والتعلّم والتّواصل واتّخاذ القرار (بن عبد النّور، 2005، ص. 7). غير أنّ هذا التّعريف التّقنيّ، على أهمّيّته، لا يكفي وحده لاستيعاب الأبعاد الاجتماعيّة والإنسانيّة لهذه الظّاهرة، وهو ما يستدعي بالضّرورة استحضار المنظور السّوسيولوجيّ الّذي يتيح قراءة أعمق لتفاعلات الذّكاء الاصطناعيّ مع البنى الاجتماعيّة القائمة.

إنّ علم الاجتماع، بوصفه ذلك العلم الّذي يُعنى بدراسة الظّواهر والوقائع والعمليّات الاجتماعيّة في ضوء رؤية علميّة (زعيمي، 1997، ص. 42)، يجد نفسه اليوم أمام تحدٍّ معرفيّ جديد يتمثّل في ضرورة توسيع أدواته التحليليّة لتشمل الظّواهر التّقنيّة المستحدَثة الّتي باتت تؤثّر تأثيراً عميقاً في البنى الاجتماعيّة. ولئن كان دوركايم قد أكّد على أنّ الظواهر الاجتماعيّة ليست مجرّد أشياء بسيطة بل هي كيان جمعيّ كالأسرة والدّين (ريتزر، 2006، ص. 162)، فإنّ الذّكاء الاصطناعيّ يمثّل اليوم كيانًا جديدًا يفرض نفسه على الحقل الاجتماعيّ ويستوجب تحليلًا سوسيولوجيّاً معمّقًا.

وقد وصف أبو غزالة (2024، ص. 17) الذّكاء الاصطناعيّ بأنّه يمثّل "التّسونامي التّكنولوجيّ" الجديد الّذي سيؤثّر على جميع جوانب حياتنا، مبنيّا على البنى التّحتيّة السّحابيّة والبيانات الضّخمة. ولعلّ هذا الوصف يكشف عن حجم التّحوّل الّذي يشهده العالم المعاصر، والّذي لا يمكن فهمه فهما شاملا دون العودة إلى الأسس النّظريّة الّتي وضعها روّاد علم الاجتماع لتحليل التّغيّر الاجتماعيّ وديناميكيّاته.

من هنا، تطرح هذه الدّراسة التّساؤل المركزيّ التّالي: كيف يمكن لعلم الاجتماع، بأدواته النّظريّة والمنهجيّة، أن يُسهم في فهم وتحليل التّحوّلات البنيويّة الّتي يحدثها الذّكاء الاصطناعيّ في المجتمعات المعاصرة؟ وتتفرّع عن هذا التّساؤل جملة من الأسئلة:

- ما الأسس المعرفيّة والفلسفيّة المشتركة بين علم الاجتماع والذّكاء الاصطناعيّ؟
- كيف يعيد الذّكاء الاصطناعيّ تشكيل تقسيم العمل وأنماط التّضامن الاجتماعيّ؟
- ما الإشكاليّات الأخلاقيّة والقيَميّة الّتي يطرحها الذّكاء الاصطناعيّ من منظور سوسيولوجيّ؟
- كيف يمكن توظيف الإرث النّظريّ السّوسيولوجيّ في بناء مقاربة نقديّة للذّكاء الاصطناعيّ؟

الذكاء الاصطناعي في المجتمع ـــــــ

بالتّميز الّذي أقامه ماكس فيبر بين أنماط الفعل الاجتماعيّ، ولا سيّما بين الفعل العقلانيّ الغائيّ والفعل العقلانيّ القيميّ، ممّا يؤكّد عمق التّقاطع بين الحقلين المعرفيّين.

2-2- تصنيفات الذّكاء الاصطناعيّ ودلالاتها الاجتماعيّة:

يُصنّف الذكاء الاصطناعيّ حسب القدرات إلى ثلاث فئات رئيسيّة: الذّكاء الاصطناعيّ الضّيّق (ANI) وهو النّوع الوحيد الموجود حاليّا ويختصّ بأداء مهامّ محدّدة ضمن مجالات ضيّقة، والذّكاء الاصطناعيّ العامّ (AGI) وهو مستوى نظريّ لم يتحقّق بعدُ يمتلك مستوى إدراكيّا مشابها للذّكاء البشريّ، والذّكاء الاصطناعيّ الفائق (ASI) وهو نوع افتراضيّ مستقبليّ يفوق البشر في جميع جوانب الذّكاء (Dutta, Preprint, 2025, p. 2). ولكلّ فئة من هذه الفئات تداعياتها الاجتماعيّة المختلفة؛ فالذّكاء الضّيّق يعيد تشكيل سوق العمل في قطاعات بعينها، بينما يطرح الذّكاء العامّ والفائق لو تحقّقا تساؤلات وجوديّة حول مكانة الإنسان في المنظومة الاجتماعيّة برمّتها.

ومن الأمثلة الواقعيّة على الذّكاء الاصطناعيّ الضّيّق: المساعدات الرّقميّة مثل Siri وAmazon Alexa، ونظام Watson منIBM ، و ChatGPT من OpenAI ، حيث تعمل هذه الأنظمة على تنفيذ مهامّ محدّدة بكفاءة عالية لكنّها محدودة بالإطار البرمجيّ أو البيانات الّتي تمّ تدريبها عليه (Dutta, Preprint, 2025, p. 2). والملفت هنا أنّ هذه الأنظمة بدأت تتغلغل في الحياة اليوميّة للأفراد وتعيد تشكيل أنماط التّفاعل الاجتماعيّ، وهو ما يستدعي تحليلا سوسيولوجيّا جادّا.

ويتنوّع الذّكاء الاصطناعيّ أيضا بحسب التّقنيّات المستخدمة؛ كالذّكاء الرّمزيّ، والتّعلّم الآليّ، والشّبكات العصبيّة، والخوارزميّات التّطوّريّة، والأنظمة الهجينة (Russell & Norvig, 2022, p. 9). وتشمل فروعه المتخصّصة الرّوبوتات، ورؤية الكمبيوتر، وأنظمة الخبراء بأنواعها المختلفة. ومن أبرز هذه الفروع الشّبكات العصبيّة الاصطناعيّة الّتي تقوم على محاكاة آليّة عمل العقل البشريّ من خلال تبسيط خصائصه الأساسيّة (بن عبد النور، 2005، ص ص 13-12). ومنطق الغموض الّذي طوّره العالم لطفي زاده سنة 1965 بهدف محاكاة طريقة التّفكير البشريّ في التّعامل مع المعلومات غير الدّقيقة (بن عبد النور، 2005، ص. 39).

3- الجذور المعرفيَّة المشتركة بين علم الاجتماع والذّكاء الاصطناعيّ:

تسعى هذه القراءة إلى الكشف عن الأرضيّة الفلسفيّة والمعرفيّة الّتي يتقاسمها كلّ من علم الاجتماع والذّكاء الاصطناعيّ، على الرّغم ممّا قد يبدو ظاهريّا من تباعد بين الحقلين. ويتبيّن من خلال التّأمّل في النّشأة التّاريخيّة لكليهما أنّهما انبثقا من رحم التّساؤلات الفلسفيّة الكبرى ذاتها حول طبيعة العقل والمعرفة والفعل الإنسانيّ

3-1- الفلسفة بوصفها أرضيّة مشترَكة:

قد يبدو للوهلة الأولى أنّ علم الاجتماع والذّكاء الاصطناعيّ ينتميان إلى عالمَيْن متباعديْن؛ الأوّل يُعنى بدراسة الظّواهر الاجتماعيّة والسّلوك الإنسانيّ، والثّاني يركّز على تصميم الآلات الذكيّة. غير أنّ التأمّل المعمّق في الجذور الفلسفيّة لكلا الحقلين يكشف عن تقاطعات عميقة وروابط تاريخيّة لا يمكن إغفالها. فكلاهما نشأ من رحم الفلسفة وانبثق من تساؤلاتها الكبرى حول طبيعة العقل والمعرفة والفعل الإنسانيّ.

يؤكّد Russell and Norvig (2022, pp. 23–24) أنّ الفلسفة كانت الأساس التاريخيّ لتطوير الذّكاء الاصطناعيّ، حيث بدأ التّفكير حول العقل والذّكاء من خلال التّساؤل عن إمكانيّة استخدام القواعد المنطقيّة لاستخلاص استنتاجات صحيحة، وعن كيفيّة نشوء العقل من دماغ ماديّ. ويُعتبر أرسطو (384-322 ق.م) أوّل من صاغ مجموعة قوانين دقيقة تحكم التّفكير العقلانيّ عبر نظام من القياسات المنطقيّة. وهذه الإرهاصات الفلسفيّة ذاتها هي الّتي مهّدت الطّريق لنشوء الفكر الاجتماعيّ المنهجيّ، ولا سيّما حين ربط أرسطو بين المعرفة والفعل في كتابه"De Motu Animalium" ، حيث أشار إلى أنّ الأفعال مبرّرة بالصّلة المنطقيّة بين الأهداف والمعرفة بنتيجة الفعل.(Russell & Norvig, 2022, p. 25)

واللّافت أنّ توماس هوبز (1588-1679) اعتبر أنّ التّفكير يشبه العمليّات الحسابيّة، واصفا العقل بأنّه نظام ميكانيكيّ يعتمد على القواعد العدديّة. وهذا التّصوّر المادّيّ للعقل هو الّذي فتح الباب أمام محاولات محاكاة الذّكاء البشريّ آليّا من جهة، وأمام دراسة السّلوك الإنسانيّ وفق منهجيّة علميّة صارمة من جهة أخرى. كما أسهمت حركة التّجريبيّة، بدءا من فرانسيس بيكون (1561-1626)وجون لوك (1632-1704)، في وضع أسس معرفة تعتمد على الخبرة الحسّيّة، وهو الأساس المنهجيّ الّذي يشترك فيه كلا الحقلين.(Russell & Norvig, 2022, p. 24)

وفي هذا السّياق، تبرز الوضعيّة المنطقيّة الّتي ساهم في تطويرها كلّ من فيتغنشتاين وراسل ضمن "دائرة فيينا"، والّتي ترى أنّ جميع المعارف يمكن وصفها عبر نظريّات منطقيّة مرتبطة بجمل الملاحظة. (Russell & Norvig, 2022, p. 25). وهذا التوجّه هو نفسه الّذي تبنّاه أوغست كونت حين أسّس فلسفته الوضعيّة، معتبرا أنّ المرحلة الوضعيّة أو العلميّة هي تلك التي يستخدم فيها الناس المنهج الوضعيّ في تفسير الوجود، ويتكوّن هذا المنهج من الاستنتاج اعتماداً على الملاحظة وحدها (كتفي، 2025، ص. 15). وبذلك، يتّضح أنّ الوضعيّة، بوصفها منهجا فكريّا، شكّلت أرضيّة مشتركة انطلق منها كلّ من علم الاجتماع والذّكاء الاصطناعيّ.

3-2- العقلانيّة: مفهوم مركزيّ في الحقلين:

يحتلّ مفهوم العقلانيّة مكانة محوريّة في كلّ من علم الاجتماع والذّكاء الاصطناعيّ، وإن اختلفت زوايا المعالجة. ففي مجال الذّكاء الاصطناعيّ، يُعدّ نهج الوكيل العقلانيّ (Rational Agent Approach) من أبرز المقاربات، حيث يركّز على تصميم أنظمة ذكيّة قادرة على اتّخاذ أفضل القرارات لتحقيق أهداف محدّدة، أو أفضل النّتائج المتوقّعة في حال وجود عدم يقين.(Russell & Norvig, 2022, p. 22)

وهذا المفهوم يتقاطع تقاطعا لافتا مع تصوّر ماكس فيبر للفعل الاجتماعيّ العقلانيّ. فقد عرّف فيبر علم الاجتماع بأنّه "العلم الّذي يعنى بفهم النّشاط الاجتماعيّ وتأويله وتفسير حدوثه ونتيجته" (كتفي، 2025، ص. 18). وقد صنّف الأفعال الاجتماعيّة إلى أنماط متعدّدة يأتي في مقدّمتها الفعل العقلانيّ الغائيّ، الّذي يتّخذ فيه الفاعل قراراته بناء على حسابات عقلانيّة تأخذ في الاعتبار الأهداف والوسائل والنّتائج المتوقّعة. والمشابهة بين هذا التّصنيف وبين نموذج الوكيل العقلانيّ في الذّكاء الاصطناعيّ ليست محض صدفة، بل تعكس جذرا فلسفيّا مشتركا.

إلّا أنّ الفارق الرّئيسيّ يكمن في أنّ فيبر كان يدرك أنّ السلوك البشريّ لا يخضع بالكامل للعقلانيّة الصّارمة، بل تتداخل فيه عوامل عاطفيّة وتقليديّة وقيَميّة. وهذا ما نبّه إليه أيضا هربرت سايمون (1916-2001) الّذي أشار إلى أنّ البشر غالبا ما يتّخذون قرارات "جيّدة بما يكفي" بدلا من المثاليّة المطلقة، وهو ما أعيد الاهتمام به في الذّكاء الاصطناعيّ منذ التّسعينيّات (Russell & Norvig, 2022, p. 28). وبذلك يبدو أنّ تطوّر الذّكاء الاصطناعيّ ذاته أفضى إلى اكتشاف حقائق كان علم الاجتماع قد توصّل إليها من قبل.

3-3- ابن خلدون والعمران البشريّ: رؤية استشرافيّة:

لا يمكن الحديث عن الجذور المعرفيّة لعلم الاجتماع دون التوقّف عند إسهام ابن خلدون (1332-1406م) الّذي يعدّ المؤسّس الحقيقيّ لعلم الاجتماع على المستوى العالمي (غيث، 2002، ص. 24). فقد ابتكر ابن خلدون علما جديدا أسماه "علم العمران البشريّ" أو "علم الاجتماع الإنسانيّ"، وحدّد موضوعاته وصِلاته بالعلوم الأخرى ومجال دراسته ومنهجه العلميّ (خلدون، 2010، ص. 31). وقد قسّم العمران إلى عدّة أنواع تشمل تأثير البيئة في العمران البشريّ، والعمران البدويّ، والدّول والخلافة، والعمران الحضريّ، والصّنائع والمعاش والكسب (كتفي، 2025، ص. 14).

والمتأمّل في رؤية ابن خلدون يجد فيها بعدا استشرافيّا لافتا؛ فقد أدرك أنّ التّطوّر التّقنيّ في الصّنائع والحِرف يرتبط ارتباطا وثيقا بطبيعة العمران وبدرجة التّحضّر، وأنّ كلّ تحوّل في أدوات الإنتاج ينعكس بالضّرورة على البنية الاجتماعيّة. وهذه الرّؤية تمثّل إطارا نظريّا صالحا لفهم ما يحدث اليوم من تحوّلات اجتماعيّة مدفوعة بالتّطوّر التّكنولوجيّ، بما في ذلك الذّكاء الاصطناعيّ. فإذا كان ابن خلدون قد ربط بين تطوّر الصّنائع وتحوّل المجتمعات من البداوة إلى الحضارة، فإنّ الذكاء الاصطناعي يمثّل اليوم مرحلة جديدة في هذا التّحوّل العمرانيّ، تستوجب إعادة قراءة نظريّة ابن خلدون في ضوء المعطيات المعاصرة.

4- الذّكاء الاصطناعيّ وتقسيم العمل الاجتماعيّ – قراءة دوركايميّة:

يشكّل التّراث النّظريّ لإيميل دوركايم منطلقا خصبا لتحليل التّأثيرات العميقة الّتي يحدثها الذّكاء الاصطناعيّ في بنية المجتمعات المعاصرة. ويتيح مفهوما تقسيم العمل الاجتماعيّ والتّضامن الاجتماعيّ بنوعيهما أدوات تحليليّة قادرة على الإمساك بالتّحوّلات الّتي تطال علاقات الأفراد ببعضهم وبالمنظومة الإنتاجيّة في ظلّ التوسّع المتنامي للأتمتة والخوارزميّات.

الذكاء الاصطناعي في المجتمع ـــــــ

عليها التّماسك الاجتماعيّ إذا لم يصاحبه تنظيم أخلاقيّ ملائم. وهذا ما أكّده دوركايم حين أعلن منذ وقت مبكّر عام 1886 أنّ المجتمع يجب أن يرتبط بروابط اجتماعيّة قويّة ذات طابع أخلاقيّ، وأنّه في حالة غياب المركز الأخلاقيّ القويّ ينحل المجتمع (علي جبلي، 1998، ص ص. 187-188).

5- الفعل الاجتماعيّ في ظلّ الأنظمة الذّكيّة – مقاربة فيبريّة:

تفتح سوسيولوجيا ماكس فيبر، بما تزخر به من أدوات تحليليّة حول الفعل الاجتماعيّ والعقلنة والبيروقراطيّة، آفاقا واسعة لقراءة التّحوّلات الّتي يُحدثها الذّكاء الاصطناعيّ في أنماط الفعل والتّفاعل داخل المجتمعات الحديثة. ويمكّننا هذا الإطار النّظريّ من مساءلة طبيعة العلاقة بين الفاعل الإنسانيّ والوكيل الآليّ في سياقات اجتماعيّة متزايدة التّعقيد .

5-1- أنماط الفعل الاجتماعيّ والوكلاء الأذكياء:

توفّر سوسيولوجيا ماكس فيبر إطارا نظرياً ثرياً ثريًّا لتحليل تأثيرات الذّكاء الاصطناعيّ في الفعل الاجتماعيّ. فقد اعتبر فيبر أنّ المجتمع نتاج لفعل الأفراد الّذين يتصرّفون تبعا للقيم والدّوافع وللحسابات العقلانيّة (دورتيه، 2010، ص ص. 47-48). والتّساؤل الّذي يفرض نفسه هنا هو: ماذا يحدث حين تصبح الآلات الذّكيّة طرفا في التّفاعل الاجتماعيّ، وحين يبدأ الأفراد بتوجيه أفعالهم بناء على توصيات خوارزميّة لا على اعتبارات إنسانيّة صرفة؟

في مجال الذّكاء الاصطناعيّ، يعتبر مفهوم الوكيل العقلانيّ (Rational Agent) مفهوما مركزيّا، حيث يصمّم الوكيل للتّفاعل مع بيئته بطريقة تحقّق أهدافه بفعاليّة، مع الأخذ بعين الاعتبار عدم اليقين في المعلومات .(Russell & Norvig, 2022, p. 21) وهذا المفهوم يتوازى إلى حدّ كبير مع مفهوم الفاعل الاجتماعيّ عند فيبر، لكن، مع فارق جوهريّ، فالوكيل الذّكيّ يفتقر إلى البُعد الذّاتيّ والمعنويّ الّذي يميّز الفعل الإنسانيّ. فمنهج فيبر السّوسيولوجيّ يقوم على ثلاث خطوات هي الفهم، والتّأويل، والتّفسير (كتفي، 2025، ص. 20). وهي خطوات تفترض وجود ذات فاعلة ذات وعي ومعنى، وهو ما لا يتوفّر في الأنظمة الذكيّة الرّاهنة.

بيد أنّ ظهور الوكلاء المعرفيّين (Knowledge-based agents) في مجال الذّكاء الاصطناعيّ يطرح تحدّيات جديدة أمام هذا التّمييز. فهؤلاء الوكلاء لا تقتصر معرفتهم على الإجراءات المتاحة ونتائجها، بل تمتدّ إلى الحقائق العامّة عن العالم، ممّا يمكّنها من استنتاج معلومات جديدة واتّخاذ قرارات أكثر مرونة .(Russell & Norvig, 2022, p. 182). وهذا يطرح سؤالا سوسيولوجيّا عميقا: هل يمكن اعتبار تفاعل الإنسان مع هذه الأنظمة شكلا من أشكال "الفعل الاجتماعيّ" بالمعنى الفيبريّ؟ أم أنّ الفعل الاجتماعيّ يظلّ حكرا على التّفاعل بين ذوات إنسانيّة واعية؟

2-5- البيروقراطيّة والعقلنة في عصر الذّكاء الاصطناعيّ:

يصنّف ماكس فيبر ضمن أبرز الشّخصيّات الّتي أسهمت في تطوير أسس علم الإدارة. وقد تحدّث كثيرا عن مفاهيم السّلطة والشّرعيّة والبيروقراطيّة (كتفي، 2025، ص 21). وقد رأى في البيروقراطيّة تجسيدا للعقلنة المتزايدة في المجتمعات الحديثة، تلك العقلنة الّتي وصفها بأنّها "القفص الحديديّ" الّذي يحاصر الإنسان. والذّكاء الاصطناعيّ، بما يمتلكه من قدرة على أتمتة العمليّات الإداريّة واتّخاذ القرارات بناء على خوارزميّات محدّدة، يمثّل امتدادا طبيعيّا لعمليّة العقلنة الّتي تحدّث عنها فيبر، بل يمكن القول إنّه يمثّل ذروتها.

فحين تتولّى الخوارزميّات اتّخاذ قرارات التّوظيف، أو تقييم الأداء، أو تحديد أهليّة الأفراد للحصول على خدمات معيّنة، فإنّنا نكون أمام شكل جديد من البيروقراطيّة يمكن تسميته "البيروقراطيّة الخوارزميّة"، والّتي تتميّز عن البيروقراطيّة التّقليديّة بأنّها أكثر كفاءة من حيث السّرعة والاتّساق، لكنّها أيضا أكثر صرامة وأقلّ قابليّة للتّفاوض. وهذا يعيد طرح إشكاليّة "القفص الحديديّ" بحلّة جديدة: هل سيحرّر الذّكاء الاصطناعيّ الإنسان من أعباء الرّوتين البيروقراطيّ، أم سيحكم قبضة "القفص الحديدي" ويفقد الإنسان آخر هوامش المرونة والتّفاعل الإنسانيّ في التّعاملات الإداريّة؟

6- الإشكاليّات الأخلاقيَّة والقيميّة – الذّكاء الاصطناعيّ بين النّفعيّة والأخلاقيّات المفروضة:

يستأثر البُعد الأخلاقي بمكانة مركزيّة في النّقاشات الدّائرة حول الذّكاء الاصطناعيّ، إذ تتشابك فيه التّساؤلات الفلسفيّة مع الهواجس الاجتماعيّة المتعلّقة بالقيم والعدالة والأمن. وتنهض هذه المقاربة على استكشاف هذه الإشكاليّات من خلال العودة إلى الأطر الأخلاقيّة الكلاسيكيّة ومساءلة مدى صلاحيّتها في ضبط سلوك الأنظمة الذكيّة.

6-1- النّقاش الأخلاقي: من كانط وبنثام إلى أخلاقيّات الخوارزميّات:

تمثّل الإشكاليّات الأخلاقيّة أحد أبرز مجالات التّقاطع بين علم الاجتماع والذّكاء الاصطناعيّ. وقد أسّست الفلسفة الأخلاقيّة إطارين رئيسيّين لاتّخاذ القرارات: النفعيّة الّتي روّج لها جيريمي بنثام (1823) وجون ستيوارت ميل (1863)، والّتي تقوم على تعظيم المنفعة للجميع؛ والأخلاقيّات المفروضة الّتي اقترحها إيمانويل كانط (1785)، والّتي تحدّد الصّواب بواسطة قوانين اجتماعيّة عامّة تحكم الأفعال المسموح بها (Russell & Norvig, 2022, p. 26). والعديد من أنظمة الذّكاء الاصطناعيّ الحديثة تحاول الجمع بين هذين النهجيْن، حيث يتمّ دمج القواعد مع تعظيم النّتائج لتحقيق اتّخاذ قرار فعّال.

وتبرز في هذا السّياق مشكلة مواءمة القيَم (Value Alignment Problem) الّتي تناولها Russell and Norvig (2022, p. 23) والّتي تعني ضرورة توافق أهداف الآلة مع القيم والأهداف البشريّة. فحتّى عند تصميم أنظمة ذكيّة قويّة، كالسيّارات ذاتيّة القيادة، فإنّ تحديد هدف واضح قد يؤدّي إلى سلوكيّات غير مرغوبة إذا لم تُراعَ المخاطر أو تأثيرات التّفاعل مع الآخرين. وهذه المشكلة هي في جوهرها مشكلة

سوسيولوجيّة بامتياز، لأنّها تتعلّق بكيفيّة ترجمة القيم الاجتماعيّة المعقّدة والمتغيّرة إلى معايير يمكن برمجتها في الآلات.

وقد عالج هذا البعد الأخلاقيّ من زاوية مختلفة كلّ من عظيموف ولي أندرسون، كما أوردهما شنايدر (2011، ص. 412، ترجمة عزّت عامر). حيث أشارا إلى أنّ قوانين عظيموف الثّلاثة للرّوبوتات لم تحقّق الهدف المرجوّ منها لأنّها تجعل الرّوبوت تابعا للإنسان دون قدرة على اتّخاذ قرارات أخلاقيّة مستقلّة . وبحسب شنايدر (2011)، فإنّ الهدف النّهائيّ لأخلاقيّات الآلة هو تمكين الماكينات من اتّباع قواعد أخلاقيّة بفعاليّة تفوق أحيانا الكائنات البشريّة، بحيث يمكنها أن تصبح مستشارا أخلاقيّا للبشر. وهذا التّصوّر يطرح تساؤلات عميقة حول مستقبل الرّقابة الأخلاقيّة في المجتمع: هل سنشهد يوما ما تحوّلا في مصادر المعياريّة الأخلاقيّة من المؤسّسات الاجتماعيّة التقليديّة إلى الأنظمة الخوارزميّة؟

2-6- الذّكاء الاصطناعيّ والأمن المجتمعيّ: بين الفرص والمخاطر:

لا يمكن تناول البُعد الأخلاقيّ للذّكاء الاصطناعيّ دون التّطرّق إلى مسألة الأسلحة المستقلّة والمراقبة الجماعيّة، وهي مسائل ذات طابع سوسيولوجيّ عميق. فقد أشار Russell and Norvig (2022, p. 1040) إلى أنّ الأسلحة المستقلّة تحمل إمكانات كبيرة من حيث الفعاليّة العسكريّة، غير أنّ الاعتماد عليها يظلّ محلّ جدل أخلاقيّ وسياسي. كما أنّ قابليّة هذه الأسلحة للتوسّع تشكّل تهديدا هائلا، إذ يمكن نشر ملايين الطائرات الصّغيرة دون طيّار لتكون بمثابة أسلحة دمار شامل.

وقد حذّر إيلون ماسك نقلا عن أبو غزالة (2024، ص. 28-29) من أنّ أجهزة الكمبيوتر قد تتجاوز البشر ذكاءً، معتبرا الذّكاء الاصطناعيّ أخطر من الأسلحة النّوويّة إذا لم توضع له رقابة تنظيميّة. وفي الوقت نفسه، يشدّد على توجيه التّطوّرات لصالح البشريّة، كما عبّر عن ذلك من خلال دعمه لمجموعة "OpenAI".وتمثّل هذه المواقف المتناقضة ظاهريّا انعكاسا لحالة القلق الاجتماعيّ المشروع إزاء تقنيّة تمتلك إمكانات هائلة للخير والشرّ معا.

ويطرح انتشار تقنيّات المراقبة الذكيّة تحدّيات خطيرة للخصوصيّة والأمن السّيبراني، إذ أصبح بالإمكان مراقبة الأفراد على نطاق واسع باستخدام كاميرات ومجسّات صوتيّة (Russell & Norvig, 2022, p. 1041). ومن المنظور الدّوركايميّ، فإنّ هذا النّوع من المراقبة قد يؤدّي إلى تقويض الرّقابة الاجتماعيّة العضويّة القائمة على الضّمير الجمعيّ واستبدالها برقابة آليّة خارجيّة، ممّا يفقد المجتمع أحد أهمّ آليّات تماسكه الدّاخليّ.

7- الذّكاء الاصطناعيّ والمعرفة الاجتماعيّة – التّعلّم الآليّ في ميزان السّوسيولوجيا:

يشكّل التعلّم الآلي، بتقنيّاته المتنوّعة وأنماطه المتعدّدة، العمود الفقريّ للذّكاء الاصطناعيّ المعاصر. ومن المنظور السّوسيولوجيّ، يبدو أنّ هذه الأنماط التعلّميّة تحمل في طيّاتها دلالات عميقة تتّصل بآليّات اكتساب المعرفة ونقلها وحفظها، وهي آليّات ظلّت تاريخيّا حكرا على الفاعل الإنسانيّ والمؤسّسات الاجتماعيّة.

7-1- أنماط التعلّم الآليّ ودلالاتها السّوسيولوجيّة:

يُنظر إلى تقنيّات التعلّم الآلي على أنّها أساس الذّكاء الاصطناعيّ المعاصر، وتتضمّن التّعلّم الموجّه حيث تكون المتغيّرات المستهدفة معروفة مسبقا، والتّعلّم غير الموجّه الّذي يعتمد على اكتشاف الأنماط والعلاقات ضمن البيانات دون إشراف مسبق .(Kalota, 2024, p. 4) والتعلّم العميق الّذي يعتمد على الشّبكات العصبيّة الاصطناعيّة لمعالجة البيانات الكبيرة والمعقّدة .(Kalota, 2024, pp. 6-7)

ومن المنظور السّوسيولوجيّ، يمكن استخلاص دلالات مهمّة من هذه الأنماط التّعلّميّة. فالتّعلّم الموجّه يشبه إلى حدٍّ مّا عمليّة التّنشئة الاجتماعيّة الّتي يتلقّى فيها الفرد قيما ومعارف محدّدة مسبقا من قبل المؤسّسات الاجتماعيّة. أمّا التّعلّم غير الموجّه فيشبه عمليّة الاستكشاف الذّاتي الّتي يقوم بها الفرد لاكتشاف أنماط العلاقات الاجتماعيّة من خلال تجربته المباشرة. وبذلك يتّضح أنّ التعلّم الآليّ، في مستوياته المختلفة، يحاكي بقدر معيّن آليّات اكتساب المعرفة الاجتماعيّة عند الإنسان.

غير أنّ الفارق الجوهري يكمن في أنّ التّعلّم البشريّ يتمّ في سياق اجتماعيّ وثقافيّ محدّد ويتّسم بالبعد المعنويّ والعاطفيّ، بينما يظلّ التّعلّم الآليّ عمليّة حسابيّة بحتة تفتقر إلى البعد الذّاتيّ. وهذا ما نبّه إليه درويش حين أشار إلى أنّ الذّكاء البشريّ ينشأ من التّركيب البيولوجيّ والعصبيّ للدّماغ وتفاعله مع الخبرات المكتسبة والبيئة المحيطة، بينما يعدّ الذّكاء الاصطناعيّ نتاجا للتّصميم والبرمجة البشريّة (درويش، 2004، ص. 18).

7-2- حفظ المعرفة ونقلها: من الضّمير الجمعيّ إلى الأنظمة الخبيرة:

تتجلّى أهمّيّة الذّكاء الاصطناعيّ في قدرته على دعم الإنسان من خلال حفظ الخبرات البشريّة المتراكمة ونقلها إلى الأنظمة الذّكيّة بما يضمن استمراريّة المعرفة وتطويرها (بن عبد النور، 2005، ص. 9). وهذه الوظيفة تتقاطع مع ما كان يؤدّيه الضّمير الجمعيّ في المجتمعات التّقليديّة من حفظ للتّراث المعرفيّ والقيَميّ ونقله عبر الأجيال. فالأنظمة الخبيرة، والّتي تبرز الدّور المحوريّ لتطبيقات الذّكاء الاصطناعيّ، تقوم بالضّبط بهذه المهمّة، أي، جمع خبرات المتخصّصين وتنظيمها وإتاحتها للاستخدام.

وقد تطوّرت الأنظمة الخبيرة تاريخيّا بدءا من نظام DENDRAL الّذي يعتمد على قواعد متخصّصة، مرورا بنظام MYCIN لتشخيص العدوى الدّمويّة، وصولا إلى R1 أوّل نظام تجاريّ ناجح (Russell & Norvig, 2022, p. 41). وهذه الأنظمة تثبت أنّ جزءا كبيرا من المعرفة الإنسانيّة يمكن ترميزه ونقله عبر الآلات، ممّا يعيد طرح السّؤال الاجتماعيّ حول طبيعة المعرفة ومصادرها ومعايير شرعيّتها.

ويتيح الذّكاء الاصطناعيّ استخدام اللّغة الطّبيعيّة في التّفاعل مع الآلات بدل لغات البرمجة المعقّدة، ممّا يسهم في توسيع نطاق الاستفادة منها ليشمل مختلف فئات المجتمع (بن عبد النور، 2005، ص. 9). وهذا البعد الدّيمقراطيّ للتّقنية يحمل في طيّاته وعدا بتقليص الفجوة المعرفيّة بين الفئات الاجتماعيّة، لكنّه يحمل أيضا مخاطر تتعلّق بتوحيد أنماط التّفكير والحدّ من التنوّع المعرفيّ الذي يثري المجتمعات.

8- نحو سوسيولوجيا الذّكاء الاصطناعيّ – آفاق نظريّة ومنهجيّة:

يفضي استعراض التّقاطعات بين علم الاجتماع والذّكاء الاصطناعيّ عبر ما تناولناه سابقا إلى استنتاج مفاده أنّ ثمّة حاجة ملحّة إلى بلورة إطار سوسيولوجيّ متخصّص يُعنى بدراسة هذه الظّاهرة. ويخصّص هذا المحور لاستشراف الآفاق النّظريّة والمنهجيّة الّتي يمكن أن ترتكز عليها هذه المقاربة الجديدة، مع استلهام التّراث السّوسيولوجيّ الكلاسيكيّ وتكييفه مع خصوصيّة العصر الرّقميّ.

8-1- الحاجة إلى تأسيس فرع سوسيولوجيّ جديد:

إنّ حجم التّحوّلات الّتي يحدثها الذّكاء الاصطناعيّ في البُنى الاجتماعيّة يستدعي التّفكير الجادّ في تأسيس فرع سوسيولوجيّ متخصّص يمكن تسميته "سوسيولوجيا الذّكاء الاصطناعيّ"، على غرار الفروع الأخرى الّتي نشأت استجابة لتحوّلات اجتماعيّة محدّدة. فقد تفرّع علم الاجتماع في العصر الحديث إلى العديد من الميادين والتّخصّصات، مثل علم اجتماع التّربية وعلم اجتماع التّنظيم والعمل وعلم اجتماع الإعلام والاتّصال (كتفي، 2025). وكما انفصلت عن علم الاجتماع علوم حديثة مثل علم الإعلام والاتّصال والعلوم السّياسيّة، فإنّ الذّكاء الاصطناعيّ باعتباره ظاهرة اجتماعيّة مستحدثة يستوجب مقاربة سوسيولوجيّة متخصّصة.

وقد أكّدت الدّراسات الحديثة أنّ المؤسّسات الأكاديميّة بحاجة إلى إعادة تقييم مناهجها الدّراسيّة لمواكبة تأثير الذّكاء الاصطناعيّ على جميع المجالات، بما في ذلك الفنون والعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، ويجب أن تتضمّن المناهج على الأقلّ مقرّرا واحدا لتعليم الطّلّاب الذّكاء الاصطناعي وتأثيره في تخصّصاتهم (Kalota, 2024, p. 12).وهذا يؤكّد الحاجة الملحّة إلى بناء جسور معرفيّة بين العلوم الاجتماعيّة والعلوم الحاسوبيّة، وهو ما يمكن أن تسهم فيه "سوسيولوجيا الذّكاء الاصطناعي" بصورة فعّالة.

ويمكن لهذا الفرع الجديد أن يستفيد من المنهج الخلدونيّ القائم على التّحليل والملاحظة والنّقد والتّمحيص والمقارنة (كتفي، 2025، ص. 14)، ومن منهج كونت الوضعيّ القائم على الملاحظة والتّجربة مع المقارنة والتّحليل التّاريخيّ (كتفي، 2025، ص. 15). ومن منهج فيبر التّفسيريّ القائم على الفهم والتّأويل والتّفسير السّببيّ (كتفي، 2025، ص. 20)، ومن المنهج الدّوركايميّ القائم على دراسة الوقائع الاجتماعيّة بوصفها أشياء خارجيّة (ريتزر، 2006، ص. 162).إنّ دمج هذه المناهج وتكييفها مع خصوصيّة الظّاهرة التّقنيّة من شأنه أن يوفّر أدوات تحليليّة قويّة لفهم التّحوّلات الاجتماعيّة الرّاهنة.

8-2- الوضعيّة الكونتيّة وأهمّيّة المرحلة العلميّة في فهم الذّكاء الاصطناعيّ:

يمكن الاستفادة من رؤية أوغست كونت للتّطوّر الاجتماعيّ في فهم موقع الذّكاء الاصطناعيّ في مسار تطوّر المجتمعات البشريّة. فقد رأى كونت أنّ المجتمعات الإنسانيّة تمرّ بثلاث مراحل وهي المرحلة اللّاهوتيّة، والمرحلة الميتافيزيقيّة، والمرحلة الوضعيّة أو العلميّة (كتفي، 2025، ص. 15). والذّكاء الاصطناعيّ يمثّل، من هذا المنظور، تجلّيا متقدّما للمرحلة الوضعيّة الّتي يوظّف فيها المنهج العلميّ لفهم الظّواهر والتّنبّؤ بها والتحكّم فيها.

الذكاء الاصطناعي في المجتمع ـــــــ

- تمثّل الإشكاليّات الأخلاقيّة المتعلّقة بالذّكاء الاصطناعيّ، من مشكلة مواءمة القيم إلى مخاطر الأسلحة المستقلّة والمراقبة الشّاملة، إشكاليّات اجتماعيّة في جوهرها تستوجب مقاربة سوسيولوجيّة نقديّة.
- ثمّة حاجة ماسّة إلى تأسيس فرع سوسيولوجيّ متخصّص يمكن تسميته "سوسيولوجيا الذّكاء الاصطناعي"، يستفيد من التّراث النّظريّ لروّاد علم الاجتماع مع تكييفه مع خصوصيّة الظّاهرة التّقنيّة المعاصرة.

التّوصيات:

بناءً على ما أسفرت عنه الدّراسة من نتائج، يوصى بما يلي:

- تطوير أطر نظريّة سوسيولوجيّة متخصّصة في تحليل الظّواهر التّقنيّة المستحدثة، مع الحفاظ على الصّلة بالتّراث السّوسيولوجيّ الكلاسيكيّ.
- تعزيز البحث البينيّ بين علم الاجتماع وعلوم الحاسوب والهندسة، لتطوير مقاربات شاملة تتجاوز التّحليل التّقنيّ الصِّرف.
- إدراج البعد الاجتماعيّ والأخلاقيّ في مناهج تدريس الذّكاء الاصطناعيّ، وإدراج الذّكاء الاصطناعيّ في مناهج تدريس علم الاجتماع.
- تشجيع الباحثين في العلوم الاجتماعيّة في العالم العربيّ على الانخراط في النّقاشات المتعلّقة بحوكمة الذّكاء الاصطناعيّ وتنظيمه.
- إجراء دراسات ميدانيّة حول تأثيرات الذّكاء الاصطناعيّ في المجتمعات العربيّة، مع مراعاة الخصوصيّات الثّقافيّة والاجتماعيّة لهذه المجتمعات.

9- الخاتمة:

في ضوء ما عرضته هذه الدّراسة، يتّضح أنّ الذّكاء الاصطناعيّ لم يعد شأنا تقنيّا فقط، بل أصبح ظاهرة اجتماعيّة كبرى تعيد رسم ملامح المجتمعات الإنسانيّة في أعمق أبعادها. وكما أنّ علم الاجتماع نشأ أصلا استجابة للتّحوّلات الكبرى الّتي أحدثتها الثّورة الصّناعيّة، فإنّ الذّكاء الاصطناعيّ بوصفه ثورة تقنيّة لا تقلّ شأنا يستوجب استجابة سوسيولوجيّة مماثلة في العمق والجدّيّة. وتبقى مقولة أبو غزالة "لا يمكنك إدارة ما لا يمكنك قياسه، ولا يمكنك قياس ما لم تعرفه" (أبو غزالة، 2024، ص. 45) خير تعبير عن جوهر ما خلصت إليه هذه الدّراسة، فالمجتمعات الّتي تتبنّى الذّكاء الاصطناعيّ دون أن تفهم تداعياته الاجتماعيّة تسير في الظّلام، وعلم الاجتماع هو المصباح الّذي يضيء هذا الطّريق.

الذكاء الاصطناعي في المجتمع ـــــــ